التقارب العثماني ـ الفرنسي وأثره على الصراع العثماني الإسباني (١٥٣٦ ـ ١٥٤٧م).

إعداد

الباحث / وليد زين عبدالحميد مشهور

مدرس مساعد ـ كلية الآداب ـ جامعة أسيوط

تاريخ الاستلام : ٢٥/ ١/ ٢٠٢١م

تاريخ القبول : ١٥/ ٢/ ٢٠٢١م

ملخص:

في الواقع لم تنشئ الدولة العثمانية علاقات صداقة، ولم تبرم معاهدات تحالف مع الدول الأوروبية، مثل تلك العلاقات التي أقامتها مع فرنسا في عهد السلطان سليمان القانوني. بدأت بوادر التقارب بين البلدين بالظهور عندما وصل شارل الخامس إلى حكم إسبانيا، ونشاطه المتواصل في محاولة إخضاع فرنسا لسيطرته، مما نتج عن ذلك اندلاع معارك طويلة بين فرنسا وإسبانيا، دفعت تلك الحروب فرنسا للاقتراب من الدولة العثمانية، وطلب المساعدة من السلطان سليمان القانوني للوقوف في وجه شارل الخامس. وقد وجد السلطان سليمان في هذا التقارب الفرصة المناسبة للحد من اتساع نفوذ شارل الخامس في القارة الأوروبية. لقد أسفرت مباحثات التقارب بين الدولة العثمانية وفرنسا عن إبرام واحدة من أشهر المعاهدات في التاريخ العثماني- الفرنسي عام ١٥٣٦م، تلك المعاهدة التي مكنت الدولة العثمانية من انتزاع فرنسا من أحضان أوروبا، وضرب الدول الأوروبية فيما بينها مستغلة في ذلك الصراع الديني الذي نشب آنذاك. بالإضافة إلى ذلك، فإن نجاح العمليات العسكرية البحرية المشتركة بين الدولة العثمانية وفرنسا ضد السواحل الإسبانية مكنت السلطان سليمان القانوني من إجبار شارل الخامس على توقيع معاهدة مُذِلّة عام ١٥٤٧م، والتي من خلالها قدّمت إسبانيا تنازلات كبيرة للدولة العثمانية.

Abstract:

In fact, the Ottoman Empire did not establish friendly relations, nor did it enter into alliance treaties with European countries, such as those that it had established with France during the reign of Sultan Suleiman the Magnificent. Signs of rapprochement between the two countries began to appear when Charles V reached the rule of Spain, and his continuous activity in trying to subjugate France, for his control, which resulted in the outbreak of long battles between France and Spain, these wars pushed France to approach the Ottoman Empire, and he requested help from Sultan Suleiman the Magnificent to stand in the face of Charles V. Sultan Suleiman found in this rapprochement the appropriate opportunity to limit the expansion of Charles V's influence on the European continent. The rapprochement talks between the Ottoman Empire and France resulted in the conclusion of one of the most famous treaties in Ottoman-French history in 1536 AD, that treaty that enabled the Ottoman Empire to wrest France from the arms of Europe, and to strike European countries among themselves, taking advantage of that religious conflict that broke out at the time. In addition, the success of joint naval military operations between the Ottoman Empire and France against the Spanish coasts enabled Sultan Suleiman the Magnificent to force Charles V to sign a humiliating treaty in 1547 AD, through which Spain made major concessions to the Ottoman state.

مقدمة:

لقد اتسمت العلاقات العثمانية الفرنسية بعمق تاريخي منذ عهد فرانسوا الأول، إذ رأت الدبلوماسية الفرنسية من الضروري كسب ود الدولة العثمانية لمواجهة الخطر الأساسي، المتمثل في ملك إسبانيا شارل الخامس، وبما أن العدو مشترك بين الدولة العثمانية وفرنسا[١]؛ فمن هنا نشأ التقارب بينهما، فظهرت الصداقة كنتاج واقع حال، بمعنى أن كل واحدة من الدولتين كانت تمارس هيمنتها داخل دائرتها الخاصة (أوربا الغربية بالنسبة لفرنسا، وأوربا الشرقية بالنسبة للدولة العثمانية)، وذلك دون أي خطر في حصول الصدام بينهما، نظراً لانعدام التجاور، وعدم تهديد أي واحدة لمطامع الأخرى، فضلاً عن اشتراكهما في العدو نفسه.[٢]

هذا في الوقت الذي قابلت فيه الشعوب الأوروبية هذا التقارب العثماني الفرنسي باستنكار شديد، واعتبرته بدعة منكرة في العلاقات الدولية، خاصة وأن القرن السادس عشر لم يكن يعرف التسامح الديني ليقر هذا التقارب بين قوتين إحداهما مسيحية والأخرى إسلامية، وكذلك في الوقت الذي كانت في الكنيسة الكاثوليكية تمر بمرحلة حرجة متمثلة في التمزق الديني السياسي[٣]، حيث تفتتت الوحدة المسيحية تحت تأثير حركة الإصلاح الديني[٤] التي حطمت هيبة الكنيسة الكاثوليكية. [٥]

إن الدولة العثمانية كانت قد بلغت مكانة لم تبلغها من قبل، وصار وجودها ضرورياً لحفظ التوازن السياسي بأوروبا[٦]، ونتيجة لهذه القوة أتيح للدولة العثمانية أن تلعب دوراً كبيراً وخطيراً في ميزان القوى الأوروبي، كما مكن فرنسا من الظهور كدولة قومية خلال القرن السادس عشر بمساعدة الأسطول العثماني الذي أصبح حامياً لجناحها الغربي ضد أي تعدٍ خارجي عليها.[٧] فالأسطول العثماني في غرب المتوسط كان يحمي جناح فرنسا الجنوبي ضد أي هجوم يشنه أعداؤها، مما أتاح لملوكها تركيز قوتهم في الشمال، وتأمين حدود فرنسا القومية. لقد استقوت فرنسا بالدولة العثمانية على الإمبراطورية الرومانية المقدسة، ثم بدأ مع السلطان سليمان القانوني – ولعدة

قرون بعد ذلك – تعاون عثماني فرنسي، يحركه عداء مشترك لأسرة آل هابسبورغ. وإذا كان هذا النمط من العلاقات المسيحية الإسلامية؛ أي استقواء طرف مسيحي على آخر بالتحالف مع طرف إسلامي، قد عرفته العلاقات العثمانية الأوروبية من قبل خلال مرحلة الفتوحات العثمانية قبل سقوط القسطنطينية، إلا أنه كانت هناك مجموعة من المتغيرات الجديدة التي اكتسب معها الدور العثماني في التوازنات الأوروبية خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين طابعاً مهماً وجديداً. (٨)

أولاً: التحالف العثماني ـ الفرنسي ضد إسبانيا وعقد معاهدة الامتيازات العثمانية الفرنسية ١٥٣٦م:

في الواقع إن اتحاد عدة ممالك أوروبية قوية تحت حكم شارل الخامس ملك إسبانيا، وبداية ظهور توازن قوى مسيحي عثماني، وبداية ظهور تحديات جديدة ضد الدولة العثمانية، انعكست بقوة على موقف الدولة العثمانية بين الهابسبورغ والبوربون، وكذلك على نمط العلاقات العثمانية الأوروبية على ساحة أوروبا، وعلى ساحة البحر المتوسط وشمال إفريقيا. وبعبارة أخرى كان للتحالف الفرنسي العثماني ضد إسبانيا أثره على الحروب العثمانية في المجر والنمسا من ناحية، وفي البحر المتوسط من ناحية أخرى. وبقدر ما ساعدت التوازنات الإسبانية الفرنسية الدولة العثمانية على تحقيق أهدافها بتوظيف هذه التوازنات لمصلحتها؛ بقدر ما أثرت الحركة العثمانية ذاتها على مصير هذه التوازنات. (٩)

ومهما يكن من أمر، وبينما كان السلطان سليمان القانوني مقيماً في بغداد، بعد أن فتح العراق، وكان قد اطمئن إلى سلامة الجبهة الغربية في البلقان بعد عقده معاهدة ١٥٣٣م مع ملك النمسا، وسعيه إلى فتح جبهة أخرى في الشرق ضد الدولة الصفوية؛ إذا بالملك الفرنسي فرنسوا الأول يرسل سكرتيره المدعو "جان دي لا فورييه" Jean de la Foret(١٠) لمقابلة السلطان سليمان في فبراير ١٥٣٥م للقيام بمهمة عقد تحالف بين فرنسا والدولة العثمانية، وقد تمت المقابلة في المعسكر السلطاني، واستقبل

السلطان سليمان السفير الفرنسي بحفاوة كبيرة، وأصبح لفرنسا منذ ذلك الوقت ممثل دائم لها لدى الباب العالي. وعلى هذه الأسس نجد أن جان دي لافوريه كان يحمل معه تعليمات سرية، قام بالتفاوض مع السلطان سليمان والصدر الأعظم إبراهيم باشا، ووقع على معاهدة امتيازات. هذه المعاهدة وضعت الخطوات الأولى لتعاون سياسي تجاري وعسكري بين الدولتين، وتضمنت المعاهدة ستة عشر بنداً. (١١)

كانت أهم الدوافع الرئيسة التي دفعت الملك فرانسوا الأول إلى التقرب من السلطان سليمان وقوع الأول في أسر شارل الخامس، بعد خسارته في معركة بافيا ٢٤ فبراير ١٥٢٥م(١٢)، فدفعت هذه الهزيمة ملك فرنسا للسعي من أجل الحصول على حليف قوي يدعم موقف فرنسا في البحر المتوسط، فكانت الدولة العثمانية ذلك الحليف الذي يتمتع بسمعة عسكرية جيدة في المنطقة. (١٣) كذلك كان شارل الخامس ملكاً لإسبانيا والبلاد المنخفضة وإمبراطوراً لألمانيا، وحاكماً لجزء كبير من إيطاليا الجنوبية، وكانت جمهوريتا جنوا وفلورنسا تابعتين له، وجمهورية البندقية ومدينة وهران بالجزائر، وكذلك جزيرة مينوركا وجزيرة صقلية، فكانت أملاكه محيطة بفرنسا من كل الجهات، ما عدا جهة البحر. لكل هذا سعى فرنسوا الأول للتحالف مع الدولة العثمانية، والاتحاد معها لمحاربة شارل الخامس من جهة المجر والنمسا، وشغل شارل الخامس عن جيوش فرنسا من جهة الغرب. (١٤)

كذلك مرت أوروبا بأزمة سياسية خطيرة، وهي المنافسة التي أشرنا إليها سابقاً بين كل من: شارل الخامس، وفرنسوا الأول ملك فرنسا؛ حول منصب الإمبراطور للإمبراطورية الرومانية المقدسة. ولقد لعبت الظروف السياسية دوراً مهماً لصالح شارل الخامس عندما اعتبره المرشحون أكثر ملاءمة للمهمة. ومع ذلك فإن فرنسوا الأول كان قد وعد قبل الانتخابات بأن يعبئ جميع القوى في أوروبا ضد الدولة العثمانية، إلا أنه بعد أن وجد نفسه متورطاً في هذا الصراع العظيم مع الإمبراطور شارل الخامس ليس فقط فيما يتعلق بالانتخابات، بل وأيضاً فيما يتعلق بنوايا شارل الأكيدة في البحر

المتوسط تجاهل الوساوسَ التي كانت تراود الحكام المسيحيين ضد المسلمين، وحاول اكتساب صداقة السلطان العثماني الذي كان يناوئ شارل الخامس. [١٥]

وبالرغم من أن فرنسوا الأول كان يتصرف من منطلق معرفته بنية السلطان سليمان في الاستيلاء على فيينا[١٦] لكن عداوته الواضحة لشارل الخامس جعلته يضع عواطفه الدينية جانباً، ويتحالف مع العثمانيين، ولقد ظهر هذا جلياً في مراسلاته مع الصدر الأعظم إبراهيم باشا قائلاً: "إن الإخوة النمساويين عازمون على جعل التاج الإمبراطوري وراثيًا في أسرتهم... إنهم يمجدونه بكل طريقة ممكنة. يجب أن يتم انتخاب إمبراطور جديد، يكرس العدالة، ويعيد للأمة الألمانية حريتها القديمة".[١٧] وكان فرنسوا الأول يتحين كل الفرص للتعبير عن مدى كراهيته لأسرة الهابسبورغ عامة، وشارل الخامس خاصة، ففي أحد اللقاءات عندما اشتكى سفير البندقية من عواقب التحالف العثماني الفرنسي رد عليه فرنسوا الأول قائلاً: "سيدي السفير، لا أستطيع أن أنكر أنني أرغب وبشدة في رؤية الأتراك أقوياء جداً ومستعدين للحرب، ليس لمصلحة الباب العالي الخاصة، لأنه كافر، ونحن مسيحيون، ولكن من أجل إضعاف قوة الإمبراطور، وإجباره على تحمل نفقات كبيرة في الحروب، وتوفير الأمن لجميع الحكومات الأخرى ضد هذا العدو العظيم..".[١٨] بادلت كذلك الدولة العثمانية فرانسوا الأول الشعور نفسه تجاه شارل الخامس، وظهر هذا في موقف الصدر الأعظم إبراهيم باشا عندما قال له: "إن قوة تشارل الخامس تشبه الفيضان الذي يزداد بسبب كثرة التيارات والجداول... واندفاعه يقوض أقوى الأسس". [١٩]

لقد كان موقف فرنسوا الأول ملك فرنسا في علاقاته مع السلطان العثماني سليمان القانوني متذبذباً؛ حيث كانت تتجاذبه عاطفتان متعارضتان أشد التعارض، إحداهما المصلحة العليا لدولته، والأخرى المشاعر الدينية التي كانت تعيش في نفسه كملك مسيحي الديانة كاثوليكي المذهب. فهو من ناحية كان يدرك إدراكاً عميقاً أنه في

حاجة للعثمانيين كقوة عسكرية قوية، تقف في وجه عدوه شارل الخامس ملك إسبانيا، وفي الوقت نفسه يدرك أن هذا التحالف أو التقارب الفرنسي العثماني سيضعه في موقف حرج أمام أوروبا[٢٠]؛ لكون فرنسا معتبرة لدى البابا أول الدول الكاثوليكية، وأشدها حرصاً على عدم تقدم الإسلام بأوروبا. [٢١]

أما بالنسبة للسلطان سليمان القانوني فلم يكن هنالك تعارض على الإطلاق بين المصلحة العليا لدولته وبين نزعته الدينية. فقد رأى سليمان القانوني في الإمبراطورية الرومانية – مع أنها عدو يجب محاربته وإخضاعه لحكم الدولة العثمانية – أن انتصاره عليها هو مزيد من التوسع الإقليمي على حساب الدول الأوروبية. وبذلك لم يدَّخر السلطان العثماني جهداً في غزوه لبلاد المجر والنمسا، والاستيلاء على المراكز الإستراتيجية في حوض البحر المتوسط لتطويق إسبانيا وغيرها من القوى الأوروبية المسيحية المعادية. [٢٢]

كل هذا دفع السلطان سليمان القانوني للبحث عن منفذ إلى قلب العالم النصراني، فوجد في عقد معاهدة الامتيازات مع فرنسا فرصة للخروج من دوامة الحروب والدسائس السياسية في أسرع وقت ممكن وبأفضل طريقة، وقد تجلَّت بوضوح أهمية الدور الفرنسي في الصراع العثماني الأسباني عن طريق إبعاد الدول الأوربية وبابا روما على كسب فرنسا إلى صفهم، فعمل الإمبراطور شارل الخامس على محاولة عقد تحالف مع الملك الفرنسي فرانسوا الأول لوقف أعمال التوسع العثماني في أوربا، والتي باتت تشكل تهديداً مباشراً، بعد أن تمكن العثمانيون من فتح بلاد المجر وحصار مدينة فيينا، لكن الملك فرانسوا الأول كان ينظر إلى أبعد من ذلك، ولمعرفته الأكيدة بأطماع شارل الخامس التوسعية؛ قرَّر عدم الدخول في أية مفاوضات مع إمبراطورية آل هابسبرغ، وفضَّل التقرب من السلطان سليمان القانوني، في محاولة منه للقضاء على أطماع وتوسعات شارل الخامس على حساب ممتلكاته.[٢٣]

بدأت المباحثات بين الدولة العثمانية وفرنسا، وقد لعبت جمهورية راجوزة دوراً بارزاً في بداية الاتصالات التي سبقت المعاهدة، فقد أرسل الصدر الأعظم إبراهيم باشا هدية لملك فرنسا فرانسوا الأول، حملها إليه حاكم راجوزا "سرافين دي غوزو" Serafin de Gozo، وهي عبارة عن ثلاثة خيول، وكان إلى عام ٩٤٠هـ/ ١٥٣٤م، وعند وصول سرافين دي غوزو إلى فرنسا أطلعه فرانسوا تفصيلات ومعلومات مهمة حول استعدادات شارل الخامس تجاه العثمانيين احتمالية استيلائه على إسطنبول من ناحية البحر الأسود، وتحدَّث عن الموانئ الفرنسية المهمة التي يمكن أن يستخدمها العثمانيون لتطويق ممتلكات شارل الخامس، وأثناء عودة حاكم راجوزة بتلك الخطابات عبر بحر الأدرياتيك للدولة العثمانية قبض عليه النمساويين، وتم أخذ الخطابات التي كانت معه مِن قِبل فرانسوا الأول، وتم قتله، وكانت خيبة أمل فرانسوا كبيرة، لفشل تلك السفارة، والتي كان يعتبرها على درجة كبيرة من الأهمية. (٢٤)

أعاد فرانسوا الأول المحاولة للاتصال بالدولة العثمانية، فكلَّف لافوريه بالتفاوض مع إبراهيم باشا الصدر الأعظم. وكانت التعليمات التي تلقاها لافوريه واضحة وعملية، فعليه أولاً أن يعبِّر للسطان سليمان عن شكر وامتنان ملك فرنسا على رسائله المليئة استعداداً وتقديراً وِوداً عظيماً وإنسانية وسماحة نفس، ثم دعوته إلى إعلان حالة السلم في أوروبا، بشرط أن يرجع شارل الخامس لفرنسا جنوا وميلانو والفلاندر(٢٥)، كذلك يجب أن يظل جون زابوليا حاكماً على المجر.(٢٦) وعلى لافوريه أيضاً أن يقنع السلطان سليمان بشن هجوم في جهة الدانوب، لأن الأمراء الألمان يمكن أن ينضموا إلى شارل الخامس. (٢٧)

لم تقتصر مهمة السفير الفرنسي جون دي لافوريه على الذهاب لإسطنبول للتفاوض مع السلطان العثماني لإبرام معاهدة بين الطرفين العثماني الفرنسي،(٢٨) بل كان من بين التعليمات أيضاً الذهاب إلى تونس للقاء خير الدين بربروس، وطلب مساعدته ضد الجنويين.(٢٩) كذلك مد خير الدين بربروس بمعلومات مفصلة عن

تحركات شارل الخامس في البحر المتوسط، وكان لافوريه يحمل أوامر مشددة من الملك الفرنسي بالسرية في تحركاته ما بين الشمال الإفريقي وصولاً إلى إسطنبول، حيث كان فرانسوا يعلق آمالاً كبيرة على نجاح المفاوضات بينه وبين الدولة العثمانية.(٣٠)

وكانت التعليمات التي يحملها جون دي لافوريه ليطلع عليها الصدر الأعظم إبراهيم باشا تشتمل على أمرين مهمين؛ الأمر الأول: استعداد فرنسا للقيام بحرب جديدة على إيطاليا في الصيف المقبل، وسوف يهاجم باربروس كورسيكا من أجل تسهيل تحرك القوات الفرنسية من البر، ويقوم الأسطول العثماني بالاستفادة من الموانئ الفرنسية من حيث الإمدادات والمؤن، وإذا تم القضاء على القوات البحرية لشارل الخامس فإن موقف القائد العثماني خير الدين باربروس سوف يكون أكثر أماناً في منطقة الشمال الإفريقي. الأمر الثاني: أن فرنسا أعدت مشروع معاهدة تجارية لإبرامها بين الجانبين لتأكيد الامتيازات التي حدثت بين الجانبين منذ سبع سنوات ٩٣٥هـ/ ١٥٢٨م، وزيادة عرى الصداقة بين الدولتين.(٣١) وقد عاد الوفد الفرنسي بعد ستة أشهر للتصديق على المعاهدة في ٤ رمضان ٩٤٢هـ/ الموافق ١١ فبراير ١٥٣٦م(٣٢)، وتكونت المعاهدة من ستة عشر بنداً. (٣٣)

أتاحت المعاهدة الفرصة للعثمانيين أن يظهروا تسامحهم الديني تجاه الأوروبيين المسيحيين، سواء كانوا فرنسيين أو غيرهم، وذلك من خلال السماح لهم بإقامة شعائرهم الدينية، وعدم إجبارهم على اعتناق الدين الإسلامي، وهذا بند مثبت في المعاهدة.(٣٤) كما كسب السلطان العثماني بهذه المعاهدة التحالف السياسي والعسكري مع فرانسوا الأول ضد أي خطر يهددهما، وخاصة من قبل شارل الخامس، حيث ضمن السلطان سليمان أن يتخذ من الموانئ طريقا للعبور إلى مملكة إسبانيا، وهذه النتيجة قليلة الحدوث في كثير من المعاهدات، وخاصة بين سلطان مسلم وملك نصراني كان من ضمن أهدافه وقف التقدم العثماني تجاه الأقاليم الأوروبية.(٣٥)

ثانياً: موقف إسبانيا من معاهدة الامتيازات العثمانية ـ الفرنسية ١٥٣٦م:

كان لعقد معاهدة الامتيازات العثمانية الفرنسية ٩٤٦هـ/ ١٥٣٦م صدى كبير في عموم أوروبا؛ وذلك لأن الدولة العثمانية كانت واحدة من أهم الدول الكبرى، وكان السلطان سليمان القانوني حاكماً لأهم دولة في العالم آنذاك، وغدا قصر طوب قابي Top Kapi[٣٦] ملتقى السفراء القادمين من الشرق والغرب، وحرصهم على إقامة علاقات حسنة مع السلطان سليمان لينالوا الحظوة لديه. وأصبحت الدول الأوروبية والدول الإسلامية – وعلى رأسها إيران – لا يدعون مناسبة إلا وأرسلت الهدايا الثمينة والممثلين الدبلوماسيين إلى العاصمة إسطنبول.[٣٧]

ومهما يكن من أمر فإنه في العام نفسه – الذي وقعت فيه فرنسا معاهدة الامتيازات مع الدولة العثمانية – قام شارل الخامس بتجهيز جيش لمهاجمة الأراضي الفرنسية ٩٤٢هـ/ ١٥٣٦م؛ مما أدى إلى قيام فرنسوا الأول بالاستنجاد بالسلطان سليمان عن طريق سفيره جون فرانجيباني.[٣٨] وعلى الفور استجاب السلطان سليمان لطلب فرنسوا الأول، وهمَّ بنجدته مثلما سارع بنجدته مِن قبل، عندما أسره شارل الخامس. وقد أرسل السلطان سليمان خطاباً إلى فرنسوا الأول مع سفيره فرنجيباني يطمئنه باستعداد بلاده لنجدة فرنسا من جحافل الجيوش الأسبانية. وجاء في الخطاب: "وصل إلى أعتاب ملجأ السلاطين خطابكم، والذي أرسلتموه مع رسولكم فرانجيباني، والحاصل على ثقتكم، ولقد أعلمني أن العدو استولى على بلادكم، وأنكم الآن محبوسون، وتطلبون الدعم والمساعدة لتخليصكم من هذا العدو؛ كل ما قلته قد انكشف تحت عرشي ملجأ العالم. لقد تم فهم التفاصيل التفسيرية تماماً، ويحتضنها علمي المهيب ككل... اطمئن، ولا تدَع اليأس يغلبك، اعلم أن أجدادي العظام – نوَّرَ الله قبورهم – لم يتوانوا في نجدة المكروب، والدخول في معارك لمحاربة العدو، وأنا على خطاهم سائر... ولست مندهشاً من ضيقكم، ولتعلم أنني ودولتي وقلاعي تحت خدمتكم، وأعلم أنني لن أنام ليلاً أو نهاراً، كما أن سيفى لن يترك يدي حتى أعيد إليك بلادك".[٣٩]

تظهر جلياً في هذا الخطاب قوة الصداقة بين السلطان سليمان والملك الفرنسي، وتأثير عقد المعاهدة بين الطرفين على شارل الخامس، الذي جهز جيوشه للدخول إلى الأراضي والحدود الفرنسية، وهذا يعني القضاء على دولة فرنسا، وضمها لإمبراطوريته. ونجد أن السلطان أعرب عن مساعدته للملك الفرنسي، وأنه سوف يجهز الحملات لتخليصه من عدوه، والمقصود من ذلك الخطاب أن السلطان سليمان سوف يرسل جيوشه نحو الحدود الإسبانية، ويهدد الموانئ والشواطئ الإسبانية من خلال منطقة الشمال الإفريقي أو إيطاليا، ليدفع الخطر عن الحدود الفرنسية. وبينما كان شارل الخامس يقترب من الحدود الفرنسية دبَّ المرض بين أفراد جيشه، مما اضطره للتراجع الحدود الفرنسية؛ لأنه غير قادر على حرب فرانسوا بجيشه الذي فقد معظمه. كذلك اضطر شارل الخامس للانسحاب بعد أن وافق على إطلاق سراح فرنسوا الأول.(٤٠)

ولما فشل شارل الخامس في حملته ضد فرنسا بدأ يستخدم الحرب النفسية ضد فرانسوا، ففي عام ١٥٣٦م ألقى خطاباً أمام البابا وهو في مجمع الكرادلة، كشف فيه عن أطماع الملك الفرنسي في إيطاليا، واعتبره مسئولاً هو والسلطان سليمان عن الحرب في إيطاليا وتوسيع دائرتها لتهديد حدود مملكته في إسبانيا. وقد تُرجم هذا الخطاب إلى كل اللغات، ونشرته صحيفة "انفرس" Anvers في كل البلاد.(٤١) وقد وجد هذا الخطاب صدى كبيراً لدى أنصار شارل الخامس، حيث أعلن أنصاره في ألمانيا والنمسا أن الجميع مستعد للوقوف ضد التحالف الفرنسي العثماني، وزيادة دعم الإمكانيات العسكرية لجيوش الإمبراطور لمواجهة ذلك الحليف(٤٢)، حتى أن أنصار شارل الخامس أطلقوا على فرنسوا الأول " فرنسوا التركي".(٤٣)

ومما لا شك فيه أن حملة التشهير التي شنَّها شارل الخامس ضد فرنسوا الأول قد آتت ثمارها. فقد ثار الرأي العام الأوروبي ضد فرنسوا الأول، واعتبروا المعاهدة

العثمانية الفرنسية خطوة غير مسبوقة بين الغرب المسيحي والدولة العثمانية المسلمة والمعتدية – حسب اعتقادهم – على الدول الأوروبية، خاصة وأن فرانسوا الأول نفسه كان من أشد المعادين للدولة العثمانية، وكان ينادي بحرب صليبية ضدها وبتوقيعه المعاهدة العثمانية لاحظ الرأي العام الأوروبي أن ثمة تعارض بين تصرفاته ومبادئه.(٤٤)

لذلك حاولت فرنسا كثيراً تبرير موقفها من المعاهدة العثمانية الفرنسية، وأخذت تضفي على هذه المعاهدة التجارية صفة "الامتياز"، وتمنحها الطابع الديني الذي ظلت تدافع عنه وتصر على نيله رسمياً من الدولة العثمانية حتى منتصف القرن الثامن عشر الميلادي. وكان هدفها من ذلك تغطية موقفها السياسي من الأتراك المسلمين بهذا الستار التجاري والديني – بحسب زعمها – في آن واحد، فانبرت تعلن في كل مناسبة وظرف، لإقناع الرأي العام الأوربي بصفة عامة – والرأي العام المسيحي الفرنسي بصفة خاصة – بأن غايتها من علاقاتها هذه مع الدولة العثمانية حفظ الأماكن المقدسة، وحمايتها، ورفع لواء المسيحية عالية، وتحقيق أرباح تجارية ليست حكراً عليها وحدها، وإنما هي مفتوحة للدول الأوربية المسيحية الأخرى. فالمعاهدة إذن امتياز حصلت عليه فرنسا لصالح المسيحية جمعاء بحسب ادعائها.(٤٥)

وهذا ما حاول "جيل دو نوايليس" Gilles de Noailles أن يؤكد عليه في مذكرته التي قدَّمها إلى شارل التاسع ملك فرنسا في العام ١٥٧٢م، حيث ذكر في القسم الأول من المذكرة أن: "السبب الأول لتحالف فرنسوا الأول مع العثمانيين قائم على العقيدة والدين... والسبب الثاني.. التجارة التى منحوها لجميع المسيحيين الفرنسيين...". (٤٦) كما أكد على ذلك أحد المؤرخين الفرنسيين حينما قال: "إن المسيحية جمعاء تدين بالفضل لفرنسوا الأول بسبب الامتيازات التي حصلت عليها نتيجة التحالف العثماني الفرنسي". (٤٧)

حاول شارل الخامس استمالة الدول الأوروبية – وعلى رأسها جمهورية البندقية– للوقوف في وجه المعاهدة العثمانية الفرنسية، والعمل على إفسادها ونقض بنودها. وكانت البندقية من أكبر الداعمين لشارل الخامس في إفساد المعاهدة؛ ذلك لأن البندقية كانت ترتبط بعلاقات تجارية قديمة مع الدولة العثمانية منذ عهد السلطان محمد الفاتح(٤٨)، ازدادت بعقد معاهدة تجارية أخرى في عهد السلطان سليم الأول في ٨ سبتمبر ١٥١٧م، كانت نتيجتها انتعاش التجارة بينهما؛ لذلك كانت لا تريد لدولة أخرى مثل فرنسا أن تنازعها علاقاتها التجارية مع الدولة العثمانية. (٤٩)

بدأ شارل الخامس يعد لحرب جديدة ضد الدولة العثمانية بمساعدة ودعم من جمهورية البندقية، وجهزوا أضخم حملة في مياه البحر المتوسط ضد الدولة العثمانية، فما كان من السلطان سليمان إلا أن حشد أسطولاً يتكون من مائة ألف جندي، وجاء خير الدين بربروس بسبعين بارجة حربية، فأنزل عساكره في مدينة أوترانت، كما انتظر السلطان سليمان من فرنسوا الأول أن يزحف على شمال إيطاليا، ويرسل أسطوله لدعم الأسطول العثماني. (٥٠)

تحرك الأسطول العثماني نحو البندقية في ٢٠ ذي الحجة ٩٤٣ هـ/ الموافق ١٧ مايو ١٥٣٧م بجيش يُقدَّر بمائة ألف جندي، ليلتقي بأسطول ضخم شرق البحر المتوسط، تحت قيادة أندريا دوريا، ووقعت بين الجيشين معركة بريفيزا الشهيرة، والتي استطاع خلالها الأسطول العثماني تطويق أسطول أندريا دوريا، وأوقع به شر هزيمة، مما اضطر أندريا دوريا إلى الانسحاب، وطلب الصلح في سبتمبر ١٥٣٨م. وتمكن الأسطول العثماني – بعد هذه المعركة – من السيطرة على العديد من المواقع المهمة في البحر الأدرياتيكي وبحر اليونان، وبذلك يكون الأسطول العثماني قد سيطر على شرق ووسط البحر المتوسط. كذلك أصبحت البندقية – التي كانت أقوى دولة بحرية بشرق البحر المتوسط – تابعة للدولة العثمانية. (٥١)

ثالثاً: النشاط البحري العثماني الفرنسي المشترك ضد السواحل الإسبانية ٩٥٠هـ/ ١٥٤٣م:

إن سياسة التوسع البحري الإقليمي التي انتهجتها الدولة العثمانية ظهرت بشكل واضح في عهد السلطان سليمان. وكان الهدف من وراء تلك السياسة هو تكوين درع واق للأقاليم التي دخلت تحت حكم الباب العالي، فكان لا بد للدولة العثمانية أن تتوسَّع؛ لتحمي ممتلكاتها من الخطر الأوروبي على أراضيها، لذلك رحَّبت بالتحالف العثماني الفرنسي عام ١٥٣٦م، والذي حقق الكثير من الأهداف في مجابهة أقوى دولة أوروبية آنذاك، وهي إسبانيا. (٥٢)

وفي الواقع فإن تحالف الأسطول العثماني مع نظيره الفرنسي كان له دوراً كبيراً في أن تخرج القوات العثمانية في غزوة بحرية ضد الجناح الإسباني من إمبراطورية آل هابسبورغ، ذلك لأنه في عام ١٥٤٢م عندما خرج السلطان سليمان إلى غزو المجر، كانت الحرب بين الإمبراطور شارل الخامس والفرنسيين على وشك الاندلاع من جديد، وكان الفرنسيون يحاصرون مدينة "بيربينيا" Perpignan(٥٣)، لكنهم لم يستطيعوا مواصلة الصمود، فاضطروا للانسحاب في نهاية المطاف. وأما شارل الخامس فقد وجد الأرضية خصبة لإبرام اتفاقية تحالف مع إنجلترا في فبراير ١٥٤٣م، لينجح في وضع الفرنسيين تحت ضغط مرة أخرى؛ ولهذا السبب لجأ الفرنسيون إلى طلب العون من السلطان سليمان(٥٤).

وقد لجأ الفرنسيون إلى طلب العون من السلطان سليمان كذلك في عام ١٥٣٩م، عندما وصلت رسالة إلى السلطان سليمان من فرنسوا الأول مع سفيره "أنطوان رنكون"Antoine Rincon(٥٥) في ١٨ رمضان ٩٤٧هـ/ الموافق ديسمبر ١٥٤٠م بخصوص التصرفات التي قام بها شارل الخامس، بالرغم من صلح "نيس" Nice المنعقد بين الطرفين (الإسباني – الفرنسي)، إلا أن شارل قام بقتل أحد السفراء الفرنسيين. وكان رنكون مكلفاً مِن قِبل الملك الفرنسى بمهمة محددة، وهي طلب

المساعدة المالية والعسكرية من السلطان العثماني لمواجهة تهديدات شارل الخامس لفرنسا وقتله السفير الفرنسي(٥٦).

وكانت الفترة الواقعة بين عامي ١٥٣٧م – ١٥٣٨م شاهدة على تنفيذ أول المخططات الحربية لمواجهة آل هابسبورغ. ولقد أجرى الجيشان العثماني والفرنسي عمليات عسكرية مشتركة للمرة الأولى بهذه المناسبة، كما قدَّم الأسطول الفرنسي الدعم لهذه العمليات. لكن الأوضاع تغيرت بشكل مفاجئ عام ١٥٣٨م. فقد أبرمت فرنسا في شهر يوليو من ذلك العام اتفاقاً مع شارل الخامس، للمشاركة في التحالف الصليبي الذي ضم عدة أطراف في أوروبا، إلا أن الحرب المندلعة بين فرنسا وإسبانيا سيتولد عنها الحاجة إلى مساعدة الدولة العثمانية من جديد.(٥٧)

وتؤكِّد الأحداث التاريخية أن الملك الفرنسي كان يسعى دائماً لمصالح فرنسا؛ إذ أرسل سفيره بولين لاجارد Baron Pauline de La Garde (٥٨) إلى السلطان سليمان إثر الهزيمة التي تلقَّاها شارل الخامس في الجزائر عام ١٥٤١م، وما إن تلقى بولين التعليمات من فرنسوا الأول حتى سافر للقاء السلطان سليمان، الذي كان في المجر آنذاك، فرافق السلطان إلى إسطنبول، وأظهر مهاراته كدبلوماسي محنك.(٥٩) وتمكن السفير الفرنسي من إقناع السلطان سليمان بضرورة مواصلة حربه ضد شارل الخامس، ولاسيما بعد الهزيمة الكبرى له في الجزائر، كما أوضح للسلطان أن فرنسا غير قادرة على مواجهة أية تهديدات مِن قِبل شارل الخامس، لذلك قرر السلطان سليمان التحرك لشن هجوم على قوات شارل الخامس عن طريق الموانئ الفرنسية(٦٠).

وما أن اتخذت الإدارة العثمانية قراراً بدعم فرنسا حتى أرسلت المترجم "يونس بك" مترجم الديوان الهمايوني إلى البندقية، وطلبت من دوقها التحالف مع فرنسا ضد شارل الخامس(٦١)؛ لكن دوق البندقية رأى عدم إقحام نفسه في حرب ليست في مصلحة بلاده، وفضَّل اتباع سياسة محايدة(٦٢). ومع ذلك فإن "يونس بك" الذي وصل إلى

البندقية في ربيع عام ١٥٤٢م استطاع إمداد الجيوش الفرنسية المتمركزة في مدينة "مارانو" الإيطالية بالغذاء، كما نجح في الحيلولة دون تنازلها عن مواجهة قوات شارل الخامس، حتى أن بعض المصادر تذكُر أنه حصل على معلومات حول جيش الإمبراطورية خلال هذه الرحلة، وعليه فقد أنجز "يونس بك" هذه المهمة الدبلوماسية بنجاح باهر.(٦٣)

على الجانب الآخر حمل السفير الفرنسي "بولين" بشرى إلى الملك "فرانسوا الأول"، مفادها أن العثمانيين منحوه وعداً بمساعدة فرنسا، وأن قائد الأسطول العثماني بربروس سيخرج بأسطوله لدعم الأسطول الفرنسي في أقرب فرصة سانحة. ثم جاء "بولين" للمرة الثانية إلى إسطنبول، وكان يرافقه في هذه الرحلة سفير آخَر يُدعى "بيليسيه Guillaume Pellicier" الذي اشتهر بحنكته السياسية.(٦٤) وكان بيليسيه أحد العملاء الذين أطلق عليهم السفراء بعد ذلك اسم "خدام الملك الصالحين" bons serviteurs du Roy، والذين يُطلق عليهم اليوم جواسيس سياسيين، قدَّموا أعظم الخدمات للدبلوماسية الفرنسية. وقد اعتمد فرنسوا الأول عليه في الكثير من مفاوضاته.(٦٥)

وصل بولين لاجارد إلى إسطنبول، يرافقه بيليسيه في ديسمبر ١٥٤١م، قادمين من البندقية، كما يخبرنا بذلك بيليسيه نفسه في خطابه إلى فرنسوا الأول. (٦٦) وتجدُر الإشارة هنا إلى أن مهمة بولين خضعت للإشراف والرقابة، وأن الملك كان يطَّلع بانتظام على تقدُّمه بفضل الرسائل المرسلة من بيليسيه. والواقع أنه – بسبب دهاء وحنكة بولين وبيليسيه – استطاع أن يقنع السلطان سليمان بتقديم المساعدة لفرنسا.(٦٧)

ففي صفر ٩٥٠هـ/ مايو ١٥٤٣م أرسل السلطان سليمان خطاباً لفرنسوا الأول مع سفيره بولين(٦٨)، جاء فيه: "يا فخر أمراء دين عيسى، اعلم أنه بطلب من وزيرك بولين منحتُك أسطولي الرهيب المجهز بكل ما يلزم، وأمرتُ خير الدين قبودان باشا

بالاستماع إليك، والاستعداد لتدمير أعدائك. واحترس من أن يخدعك عدوك مرة أخرى؛ لأنه لن يخلد إلى الصلح معك إلا إذا عرف أنك ستشنُّها عليه حرباً لا هوادة فيها".[٦٩] بدأ السلطان سليمان في تجهيز الأسطول بكل ما هو ضروري، وأعطى تعليمات للقبطان خير الدين بربروس بتنفيذ طلبات الملك الفرنسي، وذلك لتحقيق الهدف المنشود، وهو الانتصار على شارل الخامس. [٧٠]

ويتضح من الخطاب الذي أرسله السلطان للملك الفرنسي رغبته في تعريف الجانب الفرنسي تحركات الأسطول العثماني، كما وضَّح له أن القبطان خير الدين بربروس سوف يكون على أتم الاستعداد لخوض الحرب ضد الجانب الأسباني وهو تحت إمرة الملك الفرنسي، وأن الدولة العثمانية وضعت إمكانيات كبيرة لخوض هذه الحرب التي تتمنَّى أن تسفِر نتائجها عن نجاح الجانبين في الانتصار على عدوهما، كما تدل الرسالة على أهمية الحدث، حيث أن السلطان سليمان رشح أقوى شخصية بحرية في الدولة العثمانية كي تتولى قيادة المعركة، مما يؤكد جدِّية الدولة ورغبتها في تحقيق النصر. [٧١]

توجَّه بربروس نحو تولون، وغادرها في العشرين من أغسطس، برفقة الأسطول الفرنسي المكوَّن من خمسين سفينة ضعيفة الإمكانات. وبعد وصول الأسطول العثماني قبالة سواحل "نيس" Nic، رسا في ميناء "فيلفرانش" Mer – sur – llefrancheVi، القريب من المدينة، وبعد التضييق على المدينة بالحصار ونيران المدافع أعلنت استسلامها. [٧٢]

توجَّه بعد ذلك الأسطولان العثماني والفرنسي نحو نيس الواقعة تحت سيطرة إسبانيا، وكان تحالف الأسطولين مبعث خجل كبير للأوربيين النصارى، بخلاف الفرنسيين الذين كانوا على قدر كبير من الابتهاج بالانتصارات التي حققها العثمانيون،

وقد بدأت القوات العثمانية والفرنسية بحصار المدينة[٧٣]، واستمر الحصار من ١٠ أغسطس ١٥٤٣م، حتى ٨ سبتمبر من العام نفسه. [٧٤]

حاصرت قوات التحالف قلعة نيس، ثم أرسلوا خطاباً في البداية إلى القلعة يطالبون المسئولين عنها بالاستسلام، إلا أنهم تلقوا جواباً بالرفض، فبدأ حصار القلعة على الفور، وكان بربروس يوجد وقتها على جبهة القتال عند الجبل. وبدأت المدافع التي أنزلها من السفن في قصف القلعة، واستطاعت قذائف المدافع تدمير برجين من أبراج القلعة بعد مرور سويعات قليلة.[٧٥] ونتيجة الهجوم المكثف والضغط الشديد استسلمت المدينة في ٢٠ أغسطس ١٥٤٣م[٧٦]، لكن الجنود الذين كانوا يدافعون عن المدينة انسحبوا إلى القلعة الداخلية، وواصلوا مقاومتهم بقيادة الفارس المالطي "باولو سيميوني" الذي قضى فترة من حياته في الأسر قبل ذلك بصحبة بربروس. فقد رغب بربروس في شن هجوم على القلعة الداخلية في أسرع وقت ممكن، للحيلولة دون وصول إمدادات إلى المدافعين عنها، لكن هذا الاقتراح لم يلق قبولاً مِن قِبل الفرنسيين. فأدرك بربروس وقتها أنه لا أمل في دعم الفرنسيين لمخططاته، فأمر بإنزال ثمانية مدافع كبيرة إلى الشاطئ، وبادر بقصف القلعة الداخلية. [٧٧]

وفي أثناء حصار قوات التحالف للقلعة، نفِدت ذخيرة القوات الفرنسية[٧٨]، فطلبوا من العثمانيين تزويدهم بالبارود، وقد استغرب خير الدين بربروس من طلبهم هذا[٧٩]، وردَّ قائلاً: "يالكم من محاربين يملأون سفنهم ببراميل الخمر!، وينسون حمل براميل البارود!".[٨٠] وجعل يوبّخ الضباط الفرنسيين بسبب إهمالهم، والحالة المُزرية لسفنهم من حيث المعدَّات والمؤن الضرورية.[٨١] كذلك وبَّخ السفير الفرنسي بولين لاجارد قائلاً له: "هل كنت تتسلى معي عندما كنت في إسطنبول، وقلت أن جيشكم على أتم الاستعداد؟". [٨٢]

على أية حال استطاع فرنسوا دو بربون دوق آنجين كظم غيظ بربروس وتهدئته بصعوبة بالغة. وشهدت تلك الفترة تواتر أنباء عن قيام أندريا دوريا بإعداد بعض القوات، وتوجُّههم صوب مدينة "نيس". لكن هذه القوات تعرَّضت لعاصفة شديدة وهي في الطريق، فاضطرَّت للرسو في جزيرة "سانت مارجريت". وقد أعلن والي ميلان "ماركي ديل جواستو" أن الأسبان بعثوا خطاباً إلى قائد المدافعين عن نيس "سيميوني" يخبره بانطلاقهم إلى المدينة لتقديم العون له(٨٣)، وقد تمكَّن رجال خير الدين بربوس من احتجاز حامل الرسالة(٨٤) قبل أن يدخل إلى قلعة مدينة "نيس". فلما وصلت هذه الأنباء إلى مسامع بربروس أمر على الفور برفع الحصار عن القلعة، لعدم رغبته في أن يضع قواته بين شِقَّي رحى هاتين القوتين، وكذلك رفضا منه أن يضحِّي الجنود الأتراك بأنفسهم في سبيل الفرنسيين الذين كانوا يتصرَّفون برعونة كبيرة. (٨٥) إضافة إلى ذلك وصول نجدات إلى قلعة نيس من دوق ميلان في إيطاليا، وأسطول ضخم أرسله شارل الخامس، ونتيجة لكل هذه الأسباب اضطر الأسطولان العثماني والفرنسي رفع الحصار عن القلعة، وقد وصل خطاب من الملك الفرنسي يأمر الأسطولين برفع الحصار عن نيس ومغادرتها. (٨٦)

رُفع الحصار عن نيس في ٨ سبتمبر ١٥٤٣م، وتحرَّك الأسطولان العثماني والفرنسي تجاه ميناء بروفانس Provance، لأنه يعد من أهم موانئ فرنسا من الناحية العسكرية، لوجود الترسانات القوية لبناء وإصلاح السفن. وقد أرسل فرنسوا الأول خطاباً إلى سفيره بولين في ٩ أكتوبر من العام نفسه، جاء فيه أنه: "ملتزم بكل ما يلزم من إصلاحات وصيانة للأسطول العثماني". ويبدو الدافع من وراء تقديم فرنسوا الأول كل التسهيلات للأسطول العثماني هو ضمان بقائه في البحر المتوسط لمواجهة تهديدات شارل الخامس، بل والقضاء عليها قضاءً مبرماً. (٨٧)

قام بعد ذلك أسطول خير الدين بربروس بمهاجمة كورسيكا التابعة لفرنسا، والتي كانت ترابط بها قوات الإمبراطور شارل الخامس بداية شهر ذي القعدة ٩٥٠هـ/ يناير ١٥٤٤م، كما هاجم الأسطول العثماني قلاع نابولي التي كانت توجد بها حاميات أسبانية، وكان لتلك الانتصارات دوي هائل لدى العالم الأوروبي، وأزعجت شارل الخامس، نتيجة لخسائره في الأموال والأرواح، وشكَّل هذا التحالف العثماني الفرنسي حُلماً مزعجاً، كلَّف الخزانة الأسبانية الكثير من الأموال التي أنفقتها لصد تلك الحملات.(٨٨)

إن الانتصارات العديدة للأسطول العثماني في مياه البحر المتوسط ضد القوات الأسبانية أقضَّت مضجع شارل الخامس، لذلك عمل على تحريض وإثارة الرأي العام المسيحي، وشن حملة دعائية ضد فرنسوا الأول، بحجَّة أنه حوَّل مدينة طولون الفرنسية إلى مدينة عثمانية، وكان هدف شارل الخامس إفساد التعاون بين الدولتين، وإيقاف حملات خير الدين بربروس ضد السواحل الأسبانية والدول الحليفة كجنوه ونابلي.(٨٩)

والواقع أن الحملة الدعائية التي شنَّها شارل الخامس ضد فرنسوا الأول آتت ثمارها. ففي أوروبا كان الغضب يتزايد أكثر فأكثر ضد ملك فرنسا، حتى أن الكاردينال "دي بيللي" De Belly – الذي أرسله فرنسوا الأول إلى ألمانيا لتبرير موقفه من العثمانيين – لم يسمح له بدخول ألمانيا؛ لأنهم اعتبروا فرنسوا الأول عدواً للنصرانية، شأنه شأن السلطان سليمان. وأصبح فرنسوا الأول منبوذاً من أوروبا، وشاع خبر بأنه سيسحب منه لقب الملك النصراني الخالص، ويطرده من حظيرة النصرانية. (٩٠)

وثارت ثائرة المسيحية جمعاء ضد قبول فرنسوا الأول وجود الأسطول العثماني في طولون، وأخذت الدعاية المضادة للمسلمين تجتاح أرجاء أوروبا، يحملها الأسبان وغلاة الصليبية، ويستثمرونها إلى أقصى الحدود. ومن ذلك قولهم: "إن خير الدين

بربروس قد اقتلع أجراس الكنائس، فلم تعُد تسمع في طولون إلا أذان المؤذنين". وبقي خير الدين وأسطوله بمدينة طولون حتى سنة ١٥٤٤م. وأثناء ذلك هاجم شارل الخامس شمال شرقي فرنسا، وانهزم تحت جدران "شاتو تييرى" Thiery – Chateau، ثم اضطر للذهاب إلى ألمانيا، حيث كانت حركة التمرد البروتستانتي ضد الكاثوليكية بصفة عامة، وضده بصورة خاصة، قد أخذت أبعاداً خطيرة.(٩١)

والواقع أن وجود العثمانيين في أوروبا الغربية قد أدخل الرعب في قلب شارل الخامس، وعرقل تحرُّك جيوشه، لذلك سعى لإبرام الصلح مع فرنسوا الأول بعد أن هوى نجمه وذبل عوده. اضطر شارل الخامس مرغماً إلى توقيع معاهدة صلح مع الفرنسيين في ١٨ سبتمبر ١٥٤٤م في مدينة "كريبي دي فالوا"، عُرفت باسم "معاهدة كريبي" Le Traité de Paix de Crépy.(٩٢) وقد نصَّ أحد بنود هذه المعاهدة على تزويج شارل دوق أورليان أحد أولاد فرنسوا الأول؛ إمَّا من ابنة شارل الخامس، على أن يكون مهرها البلاد المنخفضة، وإمَّا ابنة أخيه فرديناند، ويكون مهرها جهة ميلانو. وفي المقابل نصَّ بند آخَر على أن يقوم فرنسوا الأول بمساعدة شارل الخامس ضد العثمانيين.(٩٣) وعندما وصل خبر هذه المعاهدة إلى السلطان سليمان استشاط غضباً، ووبَّخ فرنسوا الأول على تقصيره في استعمال أسطوله القوي ضد شارل الخامس، وقد برَّر فرنسوا الأول عقده للمعاهدة في محاولة منه لتسكين الرأي العام المسيحي الثائر ضدَّه. (٩٤)

وقد نتج عن هذه المعاهدة جلاء خير الدين بربروس وقواته عن طولون(٩٥)، والعودة إلى إسطنبول، وقد اصطحب معه ٤٠٠ بحَّار فرنسي للمساعدة في العودة بالأسطول(٩٦)، وقد عاد الأسطول العثماني من طولون إلى إسطنبول، بعد أن انبهر العالم الأوروبي بالقوة التي ميَّزت العثمانيين، وجعلتهم يواجهون أقوى دولة تسيطر عليهم وتتحكَّم في مقدَّراتهم، وهي إسبانيا. (٩٧)

رابعاً: موقف الدولة العثمانية من المعاهدة الإسبانية الفرنسية ٩٥١هـ/ ١٥٤٤م وعقد معاهدة أدرنة بين الدولة العثمانية وإسبانيا ١٥٤٧م:

ذكرنا آنفاً أن فرنسوا الأول حينما قرَّر التوقيع على معاهدة كريبي مع إسبانيا عام ١٥٤٤م[٩٨]، كان يرغب في تخفيف الضغط عن بلاده مِن قِبل قوات شارل الخامس. وفي الوقت نفسه كسب الملك الفرنسي الطرف الأسباني بتوقيع تلك المعاهدة. وقد كشفت الوثائق العثمانية أن فرانسوا الأول أثناء مفاوضاته مع شارل الخامس حول بنود المعاهدة أرسل سفيره "موسور درامون" Mosor Draman إلى إسطنبول في شوال ٩٥١هـ/ يناير ١٥٤٥م، ليتولى منصب القائم بالأعمال لدى حكومة السلطان سليمان، لأن السفير الفرنسي السابق بولين كان في مهمة دبلوماسية لدى حكومة شارل الخامس للتفاوض حول شروط المعاهدة. وعندما علم السلطان سليمان بمجيء السفير الفرنسي الجديد أصدر أمراً سلطانياً إلى أمير الهرسك بمرافقة السفير الفرنسي ومن معه إلى إسطنبول، لئلا يتعرض للخطر. [٩٩]

وفي شهر ذي القعدة ٩٥١هـ/ فبراير ١٥٤٥م أرسل فرنسوا الأول سفيره السابق بولين بعد أن أتم مهمته لدى حكومة شارل الخامس إلى إسطنبول في مهمة دبلوماسية جديدة، فقد أرسل فرنسوا الأول خطاباً إلى السلطان سليمان يحوي تفاصيل بنود معاهدة كريبي، ولعل الهدف من إرسال السفير بولين مرة أخرى إلى إسطنبول هو مؤازرة السفير درامون في إقناع السلطان سليمان بموقف فرنسوا الأول من معاهدة كريبي، وإطلاعه على الأسباب التي دعت فرنسوا الأول على التوقيع على تلك المعاهدة. [١٠٠]

استقبل السلطان سليمان السفير الفرنسي بولين وزميله درامون، ودار الحديث بين الجميع حول الاتفاقية التي عُقدت بين فرنسا وإسبانيا؛ وقد استغل بولين مهاراته السياسية في شرح الأسباب التي دعت الحكومة الفرنسية لعقد الاتفاقية، وأوضح أن الملك الأسباني شارل الخامس والملك الإنجليزي هنري الثاني وملوك أوربا جميعاً تكاتفوا

ضد فرنسا لمهاجمة حدودها، لذلك رأت الحكومة الفرنسية والملك فرانسوا الأول أن يتصالح مع شارل الخامس، ليحافظ على أراضيه من أي تهديد مِن قِبل الدول المتحالفة ضده. (١٠١)

وقد أرسل السلطان سليمان خطاباً إلى فرانسوا مع سفيره درامون بأنه يؤيد الخطوة التي اتخذها فرنسوا الأول من خلال عقده المعاهدة مع الأسبان، ويرى السلطان سليمان أن هذه المعاهدة أفشلت خطط شارل الخامس ضد فرنسا، وأن ما قام به فرنسوا الأول هو أفضل الحلول لإيقاف حربه وخصومته مع شارل الخامس، كما أعرب السلطان سليمان عن ترحيبه بكل ما يود الملك الفرنسي إعلامه به من خطط مستقبلية تجاه أي عدو له يحاول الاعتداء على الأراضي الفرنسية. (١٠٢)

حاول السلطان سليمان الاستفادة من الحلف الذي عُقد بين فرانسوا الأول وشارل الخامس لصالح تقدم الفتوحات العثمانية، وانشغال الطرفين – وبالأخص شارل – بتجهيزاته لتنفيذ بنود المعاهدة والاحتفالات الرسمية بها. لذلك جهَّز خلال عامَي ٩٥١هـ – ٩٥٢هـ/ ١٥٤٤م – ١٥٤٥م الحملات العسكرية ضد تجاوزات فرديناند أخي شارل الخامس، حيث تمكَّنت القوات العثمانية من السيطرة على قلعة (غزان – Gzan)، التي تُعتبر البوابة الشمالية للمجر، وتم محاصرتها من البر والنهر عبر نهر الدانوب ومحاصرة القوات الأسبانية والإيطالية التي تقوم بحراستها، ونجحت القوات العثمانية في السيطرة على القلعة، وتحويل كنيسة غوت Gut إلى مسجد، وتمكَّنت القوات العثمانية من السيطرة على عدد كبير من القلاع. (١٠٣)

في تلك الأثناء أرسل فرديناند وفداً من السفراء إلى العاصمة، وكان ذلك الوفد مكونًا من "هيرونيموس أدورنو"(١٠٤)، وكاتبه ذي الأصول الإيطالية "جيوفاني ماري مالفيزي" (١٠٥) Giovanni Maria Malvezzi. لكن سفير النمسا وافته المنية على

حين غرة، قبل أن يلتقي السلطان سليمان في "أدرنة"، وذلك بحسب ما تظهره رسالة كان قد أرسلها السلطان حول هذا الصدد. وقد كتب هذه الرسالة الكاتب "بيرتيمو" بتاريخ ٢٣ ذي الحجة ٩٥١هـ/ ٨ مايو ١٥٤٤م، إذ جاء فيها: أن السفير النمساوي وافته المنية، وأن السلطان لم يفهم ما المطلوب بالتحديد من الرجل، ومن الخطاب الذي كان بحوزته. ثم واصل السلطان كلامه في تلك الرسالة بقوله: "... مهما كان غرضك من إرسال رجالك إليَّ، فإن عزة دولتي وبلاطي واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، منذ زمان الآباء والأجداد. وأنا لا أمانع في وفود أي رسول أو سفير، سواء من أجل الصلح والصداقة، أو من أجل الحرب والعداوة ...". ولقد طلب السلطان سليمان في هذه الرسالة من "فرديناند" إيضاح مطالبه بدقة، وأشعره أنه يميل إلى إبرام اتفاق سلام معه، وعندها أرسل "فرديناند" وفداً آخَر من السفراء، إذ كان يترأس هذا الوفد قانوني يُدعى "نيكولاس سيقو".[١٠٦] ولقد بعث شارل الخامس رسولاً [١٠٧] هولندياً يُدعى "فيلتفيك" [١٠٨] Gerard Veltwyck إلى جانب السفير النمساوي، ليحضر جلسات المفاوضات مع السلطان العثماني. وكان العرض الذي كلّف السفير "سيقو" بعرضه على البلاط العثماني عبارة عن تقديم هدايا مالية سنوية إلى السلطان، قدرها ١٠ آلاف قطعة ذهبية، و٣ آلاف قطعة ذهبية أخرى إلى الصدر الأعظم، من أجل المحافظة على حدود دولة فرديناند. [١٠٩]

وافق السلطان سليمان في ١٠ نوفمبر ١٥٤٥م على عقد هدنة لمدة عام ونصف[١١٠]، تستمر خلالها المفاوضات بين الطرفين، وخلال هذه الفترة ينبغي على فرديناند وأخيه شارل الخامس أن يرسلوا مندوبيهم لتوقيع الصلح.[١١١] وقد استمرت المفاوضات مدة عشرة أشهر وافق خلالها السلطان سليمان على مقترحات فرديناند، وكانت أهم هذه المقترحات أن تظل المجر تحت سيادة الدولة العثمانية، في حين يدفع فرديناند ٣٠ ألف دوقة سنوياً مقابل الأراضي التي ستظل بحوزته، وهي الأجزاء

الشمالية الغربية من المجر. [١١٢]

لا شك أن الدولة العثمانية عندما سعت للصلح مع النمسا وإسبانيا كانت لديها أهداف ومصالح عليا تحتِّم عليها أن تعقد صلحاً مع كل من النمسا وإسبانيا. ففي ذلك الوقت أراد السلطان سليمان أن يتفرَّغ لجبهة بلاد فارس، مما يعني عدم الاستجابة الرغبة فرنسا في إعلان الحرب على الدولتين، وكان الوضع في بلاد فارس يحتِّم على الدولة العثمانية تجهيز الجيوش لمنع السيطرة الفارسية على العراق، وحماية المنطقة من نشر المذهب الشيعي، بالإضافة للخطر البرتغالي الذي كان يهدد شواطئ الخليج العربي؛ لذلك كان قرار السلطان سليمان في عقد صلح مع النمسا وإسبانيا قراراً صائباً للتوجهات العليا للسياسة العثمانية. [١١٣]

في نهاية المطاف وصل "فيلتفيك" سفير شارل الخامس إلى أدرنة عقب وصول السلطان لها، واستقبله السلطان رسميا يوم ١٤ يناير عام ١٥٤٦ م. وقد قدَّم السفير الهولندي خطاب اعتماده، وبعض الهدايا الأخرى، ومذكرة تتضمَّن مهامَّه وصلاحياته، وأما السلطان سليمان فقد أبلغه بأنه سيسعى لحل كافة المشاكل القائمة بين الطرفين إن كان قد جاء بعرض مناسب مِن قِبل شارل الخامس. وبعد مفاوضات استمرت بين الجانبين على مدار عدة أشهر[١١٤] أبرما اتفاق هدنة[١١٥] لمدة ٥ سنوات يصبُّ في مصلحة العثمانيين[١١٦] في شهر ربيع الآخر ٩٥٤هـ/ ١٩ يونيو ١٥٤٧م.[١١٧] وقد أدخل البابا وفرنسا وجمهورية البندقية[١١٨] كذلك في هذا الاتفاق، ونصَّ الاتفاق على الإبقاء على المناطق التي استولى عليها العثمانيون في المجر تحت إدارتهم، وأما المناطق الأخرى في مملكة المجر التي لم يفتحها ومازالت تخضع لسيطرة "فرديناند" فسيدفع عنها خراجاً إلى الدولة العثمانية، بقيمة ٣٠ ألف قطعة ذهبية، في شهر مارس من كل عام. وفي أول أغسطس من العام نفسه عاد المبعوث فيلتفيك إلى ألمانيا حاملاً وثيقة الاتفاق للتصديق عليها مِن قِبل فرديناند.[١١٩]

وبالنظر إلى بنود هذه المعاهدة نجد أنها تمثل القمة التي بلغتها سطوة الدولة العثمانية طوال فترة التاريخ، لقد جعلت هذه المعاهدة أوروبا بصفة عامَّة – وإسبانيا بصفة خاصة – توافق بصورة رسمية على رجحان الوضع القانوني للدولة العثمانية، وعدم مساواتها مع أية دولة أخرى. وليس أدلَّ على ذلك من بنود المعاهدة نفسها، ففي البند الأول اعترف شارل الخامس وأخوه مُرغَمَين بالفتوحات العثمانية في أوروبا، وأيضاً جاء في وصف الإمبراطور شارل الخامس "شارل ملك ولاية إسبانيا"، وهذه إشارة إلى التحقير من شأنه، وعدم اعتراف السلطان سليمان بإمبراطوريته، ولم يسلم فرديناند كذلك من التحقير، فنجد أن وصفه في المعاهدة "فرديناند ملك الرومان ورعاياهم"، وهذه إشارة أيضاً إلى عدم اعتراف السلطان سليمان به ملكاً على المجر كما يحب فرديناند أن يطلِق على نفسه.

والواقع أن معاهدة إسطنبول أو معاهدة أدرنة – كما تُعرف لدى الغرب – تُعد ذروة الذروة لمجد الإسلام في أوروبا وإذلاله لجبروت أكبر ملوكها من آل هابسبورغ، متمثلين بالأخوين شارل الخامس وفرديناند الأول، والخضوع الأوربي التام لحقيقة أن السلطان سليمان القانوني هو سيد القارة المتحكم. هذه المعاهدة وقَّعها هذان الملكان بكل انكسار أمام السلطان سليمان، والذي سحق بجيشه أكبر جيوشهم وأساطيلهم براً و بحراً، وانتزع أمنع قلاع أوروبا وعواصمها من أيديهم كبلغراد و بودا، بل وحاصر عاصمة فيرديناند نفسه "فيينا" مرتين؛ عام ١٥٢٩م وعام ١٥٣٢م، ودمَّر أساطيلهم المشتركة في فخر معارك الأسطول العثماني، بقيادة أسد البحار خير الدين بربروس، في معركة بريفيزا أو بروزة عام ١٥٣٨م. كل هذه الانتصارات العثمانية المدوية جعلت آل هابسبورغ يسارعون للتوقيع على وثيقة انكسارهم أمام السطوة العثمانية.

خاتمـــــــة

في الواقع إنه بتتبع موضوع التحالف العثماني الفرنسي ضد إسبانيا ١٥٣٦ – ١٥٤٧م، نجد أن الدراسة قد أظهرت عدة نتائج، أبرزها: قيام الدولة العثمانية بإبرام معاهدة الامتيازات مع فرنسا عام ١٥٣٦م، حيث تمكنت الحكومة العثمانية من توظيف الخلافات، والتوازنات الأوروبية لخدمة مصالحها، وكان الهدف الرئيس للسياسة الخارجية العثمانية آنذاك هو إضعاف إسبانيا، وإبقاء أوروبا متناحرة، والحيلولة دون شن حرب صليبية جديدة ضدها، لذلك فإن السبب الذي دفع بالسلطان سليمان لإبرام معاهدة الامتيازات مع فرنسا ١٥٣٦م هو الصراع العثماني – الإسباني، إذ أن هدف الدولة العثمانية من التحالف الفرنسي هو عرقلة هيمنة شارل الخامس وأسرة الهابسبرج على أوروبا، ومنع تركز القوة في يدٍ واحدة.

أوضحت الدراسة كذلك تطور استراتيجية التحالف العثماني – الفرنسي من خلال العمليات العسكرية البحرية المشتركة بين الأسطول العثماني والقوات الفرنسية ضد السواحل الإسبانية عام ١٥٤٣م، ودور خير الدين بربروس في التقارب العثماني – الفرنسي منذ ثلاثينيات القرن السادس عشر وحتى وفاته عام ١٥٤٦م. فضلاً عن ذلك، فقد أظهرت الدراسة موقف الدولة العثمانية من المعاهدة الفرنسية – الإسبانية عام ١٥٤٤م، وما ترتب عليها من آثار على العلاقات العثمانية – الفرنسية؛ أدت إلى عقد معاهدة بين الدولة العثمانية وإسبانيا عام ١٥٤٧م عرفت بمعاهدة أدرنة أو إسطنبول، والتي تعتبر انتصاراً كبيراً للسياسة العثمانية في مجال العلاقات الدولية، حيث اعترف الإمبراطور بفتوحات الدولة العثمانية، ووافق على صفة وعلاقة حكام المجر والنمسا وبوهيميا بالطرفين، وكذلك طريقة معاملة رعايا البلدين الفارّين، وإخضاع ملك المجر لسيادة السلطان. كما منعت الاتفاقية الإمبراطور من إستخدام هذه الصفة –أي الإمبراطور – في مكاتباته مع الدولة العثمانية، واقتصاره على لقب (ملك إسبانيا) فقط، وحصر ذلك اللقب في السلطان العثماني وحده دون سائر ملوك أوروبا، وقد ألزمت كل من فرنسا والبندقية والبابا برعاية تلك الشروط، وتمثل تلك المعاهدة القمة التي وصلت إليها سلطة الدولة العثمانية، بالإضافة إلى أنها حسمت الصراع بين السلطان سليمان وشارل الخامس لمصلحة الأول بعد ثلاثين عاماً من المعارك المتصلة، واعترفت أوروبا بأسرها بتلك الحقيقة.

الهوامش

(١) جاك فريمو: فرنسا والإسلام من بنابليون إلى ميتران، ترجمة هاشم صالح، ط١، دار قرطبة للنشر، قبرص، ١٩٩١، ص ١٨- ١٩.

(٢) إدريس الناصر رائسي: العلاقات العثمانية الأوربية في القرن السادس عشر، ط١، دار الهادي للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠٧، ص ٩٤- ٩٥.

(٣) المرجع نفسه، ص ٩٥.

(٤) جلال يحيى: تاريخ العلاقات الدولية في العصور الحديثة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢، ص ١٣.

(٥) إدريس الناصر رائسي: مرجع سابق، ص ٩٥.

(٦) محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق: إحسان حقي، ط١، دار النفائس، بيروت، ١٩٨١، ص ٢٠٩.

(٧) فاطمة حسين فاضل المفرجي: العلاقات العثمانية الفرنسية (١٥٦٦م- ١٧٤٠م)، مجلة سر من رأى، كلية التربية، جامعة سامراء، ع ٤١، مج ١١، ٢٠١٥، ص ٢٧٢.

(٨) إدريس الناصر رائسي: مرجع سابق، ص ٩٥- ٩٦.

(٩) المرجع نفسه، ص ٩٦- ٩٧.

(١٠) جان دي لا فوريه: سفير فرنسي لدى الدولة العثمانية، كان ملماً بشؤون الدولة العثمانية، أرسله الملك الفرنسي فرنسوا الأول بتعليمات إلى السلطان سليمان في فبراير ١٥٣٦م لإبرام معاهدة صداقة بين فرنسا والدولة العثمانية، عرفت باسم معاهدة الامتيازات. انظر: =

M. Lecote De Saint –Priest; Mémoire sur l'ambassade de France en Turquie et sur le commerce des français dans le levant, Librairie de la société asiatique , Paris, 1877, p 181 .

(11) E.Charrière; Négociations de la France dans le Levant, ou Correspondances, mémoires et actes diplomatiques des ambassadeurs de France à Constantinople... à Venise, Raguse, Rome, Malte et Jérusalem, en Turquie, Perse, Géorgie, Crimée, Syrie, Égypte, etc., et dans les États de Tunis, d'Alger et de Maroc, T.1, Imprimerie Nationale, 1853, pp.283-294.

(١٢) رائد سامي الدوري: معاهدة الامتيازات العثمانية الفرنسية لعام ١٥٣٦م "دراسة تاريخية تحليلية"، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة تكريت، ع ٢، مج ١٩، ٢٠١٢، ص ٤٠٧.

(١٣) مشتاق مال الله قاسم وحيدر عبد الرضا حسن: العلاقات العثمانية الفرنسية والموقف الروسي منها ١٥٣٥-١٨٥٦م، مجلة آداب البصرة، جامعة البصرة، العراق، ع ٧٥، ٢٠١٥، ص١٢٥.

(١٤) محمد فريد بك: مصدر سابق، ص ٢٠٨- ٢٠٩.

(١٥) يوسف علي الثقفي: معاهدة الامتيازات العثمانية الفرنسية لعام ٩٤١هـ/ ١٥٣٥م، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، السعودية، ع ٦، مج ٦، ١٩٨٢، ص١٥٢-١٥٣.

(16) The Cambridge Modern History by Lord Acton LLd, vol.3, The Wars Of Religion, New York, The Macmillan Company, 1905, p.105.

(17) Ibid., p.104.

(18) Burke Wilkinson; Francis in All His Glory, New York, 1972, p.204.

(19) The Cambridge Modern History, Op. Cit., vol.3, p.104.

(٢٠) إدريس الناصر رائسي: مرجع سابق، ص ٩٦.

(٢١) محمد فريد بك: مرجع سابق، ص ٢٠٩.

(٢٢) إدريس الناصر رائسي: مرجع سابق، ص ٩٦- ٩٧.

(٢٣) رائد سامي الدوري: مرجع سابق، ص ٤١٠.

(٢٤) فاطمة علي العواد: العلاقات العثمانية- الفرنسية في عهد السلطان سليمان القانوني (٩٢٦-٩٧٤هـ/١٥٢٠- ١٥٦٦م) دراسة وثائقية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ص ١٣٤.

(٢٥) أندري كلو: سليمان القانوني، تعريب: البشير بن سلامة، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١، ص ٢١٨- ٢١٩.

(26) Anthony Carmen Piccirillo ; The Franco-Ottoman Alliance of Francis I and the Eclipse of the Christendom Ideal، Senior Honors Thesis in History ،Georgetown University، 2009، p.45.

(٢٧) أندري كلو: مرجع سابق، ص ٢١٩.

(٢٨) فاطمة العواد: مرجع سابق، ص ١٣٥.

(29) Anthony Carmen Piccirillo ; Op. Cit.، p.45.

(٣٠) فاطمة العواد: مرجع سابق، ص ١٣٥.

(٣١) المرجع نفسه، ص ١٣٥- ١٣٦.

(٣٢) يشير السيد هاممر Hammer في مذكرته عن "العلاقات الأولى بين فرنسا والباب العالي"،

Mémoire sur les Premieres relations de La France avec la porte. Journal Asiatique TX.1827.، P30

مناقشة حول تاريخ هذه المعاهدة التي اقتبس بنودها من "فلاسان Flassan"، في كتابه:

Histoire générale et raisonnée de la diplomatie française ou de la politique de la France Depuis la fondation de la Monarchie jusqu'à la fin du règne de Louis XVI ; avec des tables = chronologiques de tous les traités conclus par la France، T.1 ، Lenormant, Paris, 1809, pp.358-362

وطبقاً لرأي هاممر لا يمكن أن يكون تاريخ المعاهدة فبراير عام ١٥٣٥م، وإنما فبراير ١٥٣٦م. ويستدل على ذلك بمذكرات السلطان سليمان في حربه السادسة التي تحتوي على برهانين، أحدهما سلبي، والآخر إيجابي. فهذه المذكرات تسرد جميع أعمال السلطان يوماً بيوم، منذ خروجه من اسطنبول حتى عودته إليها، أي أثناء عامين ونصف. فخلال شهر فبراير عام ١٥٣٥م كله الذي عقدت فيه هذه المعاهدة في اسطنبول مع الصدر الأعظم إبراهيم باشا، كان هذا الأخير هو والسلطان في معسكرات بغداد الشتوية، وهذا هو البرهان السلبي، وفي يوم الأربعاء ٢٣ ذي الحجة عام ٩٤١هـ، الموافق ٢٩ مايو عام ١٥٣٥م، جاء مراسلون من قبل بلرباي الروملي، ومعهم سفير ملك فرنسا إلى معسكر السلطان في أذربيجان. إذن فالسفير الفرنسي أو أحد معاونيه لم يصل إلى معسكر السلطان والصدر الأعظم إلا في ٢٩ مايو عام ١٥٣٥م، ومن ثم فالمعاهدة لم تعقد في فبراير عام ١٥٣٥م، وإنما في فبراير عام ١٥٣٦م، وكانت آخر عمل تاريخي مهم لإبراهيم باشا. ويؤيد قول هاممر هذا ما ذكره السفير الفرنسي (جرمينى)، في رسالة منه إلى الملك هنري الثالث في ٤ يونيو عام ١٥٨٠م عن تاريخ هذه المعاهدة، إذ أرخ هذه المعاهدة بسنة ١٥٣٦م. ويعلق "شارييز Charriere" والبارون "دي تيستا De Testa" على قول هاممر بأن المؤرخ العالم نسي أمراً= =بسيطاً معروفاً لدى الجميع، وهو أن جميع حوادث تاريخ فرنسا قبل إصلاح التقويم كانت تمد تاريخ السنة السابقة على الأشهر الثلاثة الأولى من السنة التالية، بصورة أن السنة تبتدئ في عيد الفصح لا في عيد الميلاد. وبذلك يكون ما قاله هاممر صحيحاً.

أيضاً لا يمكن اعتبار عام ١٥٣٥م هو عام عقد المعاهدة؛ وذلك لأن السلطان سليمان –بعد عقد معاهدة السلم مع النمسا في عام ١٥٣٣م– تفرغ لمواجهة الدولة الصفوية، وخرج بحملة عسكرية، قصد بها بلاد فارس والعراق، ولم يعد إلى اسطنبول حتى يوم التاسع والعشرين من ديسمبر عام ١٥٣٥م، وهذا يطرح تساؤلاً، متى عقد السلطان المعاهدة مع فرنسا في عام

١٥٣٥م وهو لم يكن موجودا أصلا في اسطنبول في =أثناء أعوام ١٥٣٤ و ١٥٣٥م؟. والحقيقة أن المعاهدة التي عقدت مع فرنسا في عام ١٥٣٥م هي تلك التي عقدها خير الدين بربروس، والتي نصت على التعاون ما بين الملك الفرنسي فرانسوا الأول وخير الدين على حماية السفن التجارية في البحر الأبيض المتوسط من خطر أسطول شارل الخامس، لذلك فإنه وقع خلط بين المعاهدة التي عقدها خير الدين بربروس مع الملك فرانسوا الأول في عام ١٥٣٥م ومعاهدة الامتيازات العثمانية الفرنسية التي عقدها السلطان سليمان مع الملك فرانسوا الأول في عام ١٥٣٦م، وليس عام ١٥٣٥م.

لذلك رأى الباحث أن تاريخ عقد المعاهدة هو فبراير ١٥٣٦م. انظر: ليلى الصباغ: الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر، العاشر والحادي عشر الهجريين، ج ١، ط ١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٩م، ص ١٣٩؛ مؤيد حميد الدوري: العلاقات العثانية الفرنسية ١٥٢٠-١٥٦٦م، صفحات للدراسات والنشر، دمشق،٢٠١٧، ص ٩٨؛ رائد سامي الدوري: مرجع سابق، ص ٤٠٦- ٤٢١.

(33) Le Barón de Testa; Recueil des traités de la Porte ottomane avec les puissances étrangères depuis le premier traité conclu, en 1536, entre Suléyman I et François I jusqu'à nos jours,T.1, Amyot, Paris,1864, T.1, pp 15-21.

(٣٤) البند السادس، انظر: محمد فريد بك: مرجع سابق، ص ٢٢٥- ٢٢٦؛ بسام العسلي: فن الحرب الإسلامي في العهد العثماني، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤، ص ٥٣٨؛

Le Barón de Testa; Op. .Cit T1, .pp17-18

(٣٥) فاطمة علي العواد: مرجع سابق، ص ١٦١.

(٣٦) طوب قابي (بالعثمانية: طوپ قپو، وبالتركية الحديثة: Topkapı Sarayı): أكبر قصور مدينة إسطنبول التركية، ومركز إقامة سلاطين الدولة العثمانية لأربعة قرون من عام ١٤٦٥م إلى ١٨٥٦م.

(٣٧) أكمل الدين إحسان أوغلي: الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، تعريب: صالح سعداوي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، إسطنبول، ١٩٩٩، ص ٢٢٤.

(٣٨) فاطمة علي العواد: مرجع سابق، ص ١٥٢.

(39) Lettre de Suléyman I à François dans: Le Barón de Testa; Op. Cit., T.1,pp.28-29.

(40) Ismail Hami Danişmend; Izahlı Osmanlı Tarihi Kronolojisi,cilt.2, Türkiye Yayınevi, 1971, p.192

(٤١) نور الدين حاطوم: تاريخ عصر النهضة الأوروبية، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٥، ص ٣٦٤- ٣٦٥.

(٤٢) فاطمة علي العواد: مرجع سابق، ص ١٥٣.

(٤٣) نور الدين حاطوم: مرجع سابق، ص٣٦٤.

(٤٤) ليلى الصباغ: الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر/ العاشر والحادي عشر الهجريين،ج١، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٩م، ص ٢٠٩- ٢١٠.

(٤٥) المرجع نفسه، ص ٢١٠.

(46) Mémoire de l'ambassadeur de Noailles (évêque d'Acqs) adressé à Charles IX, en mars 1572 (zilcadé 979), dans: Le Barón de Testa; Op., Cit., T.1, pp.99-106.

(47) Louis Deshayes de Courmenin; Voyage de Levant fait par le commandement du Roy en l'année 1621, A. Taupinaert, 1645, p.308.

(٤٨) نعيم زكي فهمي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣، ص ٤٣٧- ٤٣٨؛

Georg Bernhard Depping; Histoire du Commerce entre le Levant et l'Europe depuis les Croisades jusqu'à la fondation des colonies d'Amérique، T.2، Paris، 1830، pp.227-228.

(49) Wilhelm Heyd; Histoire du commerce du Levant au moyen-âge، T.1، Leipzig، 1886، pp.545-546.

(٥٠) شكيب أرسلان: تاريخ الدولة العثمانية، تحقيق: حسن السماحي سويدان، ط١، دار ابن كثير، دمشق، ٢٠١١، ص ١٥٧.

(٥١) فاطمة علي العواد: مرجع سابق، ص ١٥٨.

(٥٢) مؤيد حميد الدوري: مرجع سابق، ص ١٤٨.

(٥٣) مدينة فرنسية، ومركز بلدية وعاصمة مقاطعة بيرينيس أورينتاليس التابعة لإدارة فرنسا الجنوبية. بيربينيا كانت عاصمة للإقليم بيرينيس أورينتاليس في العهد الملكي، وكانت مركز الكاتلونية، ومركز رأس المال التابع لمملكة مايوركا في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين. انظر: الموسوعة البريطانية: www.britannica.com/place/perpignan.

(٥٤) فريدون أمجان: سليمان القانوني سلطان البرين والبحرين حقائق في ضوء المصادر، ترجمة: جمال فاروق وأحمد كمال، ط١، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠١٤، ص ٢٦٨.

(٥٥) دبلوماسي فرنسي إسباني المولد، توفي في يوليو ١٥٤١م، كان مبعوث فرنسوا الأول لدى الباب العالي، لإبرام اتفاقية عسكرية ضد شارل الخامس، قام بمهمات مختلفة إلى اسطنبول بين عامي ١٥٣٥م و١٥٤١م. للمزيد انظر:

Garrett Mattingly; Renaissance Diplomacy, Baltimore, U.S.A, 1964, pp.234-235.

(56) Lettre d'Antoine Rinçon, envoyé français à Constantinople, au connétable de Montmorency, en date d'Andrînopie le 7 février 1539 (18 ramazan 945). dans: Le Baron de Testa; Op., Cit., T.1, pp.32-33.

(٥٧) فريدون أمجان: مرجع سابق، ص ٢٦٩– ٢٧٠.

(٥٨) أنطوان إسكالآن ديزيمار (بالفرنسية: Antoine Escalin des Aimars)، كان أنطوان سفيراً لدى الدولة العثمانية من ١٥٤١م إلى ١٥٤٧م، ثم أصبح لاحقاً قائد سفن القواديس الفرنسية منذ عام ١٥٤٤م، ويُعرف أيضاً باسم "القبطان بولان" (بالفرنسية: Le Capitaine Paul)، ثم أصبح البارون "دو لاجارد" (بالفرنسية: Baron de La Garde). للمزيد انظر:= Yann Bouvier; Antoine Escalin des Aimars (1498-1578) - De la Garde-Adhémar au siège de Nice, le parcours d'un Ambassadeur de François Ier, Recherches Régionales, Nice, Conseil Général des Alpes-Maritimes, n°188, octobre-décembre 2007,pp.75-90.

(٥٩) أندري كلو: مرجع سابق، ص ٢٢٥.

(٦٠) جون فون هاممر: دولت عثمانية تاريخي، ترجمة: محمد عطا، بيشنجي جلد، سلانيك مطبعه سي، استانبول، ١٣٣٠هـ، ص ٢٣٦– ٢٣٧.

(٦١) فريدون أمجان: مرجع سابق، ص ٢٧٠.

(٦٢) صدر أسبق كامل باشا: تاريخ سياسي دولة علية عثماني، مطبعة أحمد إحسان، استانبول، ١٩٠٩، ص ٢١٤؛

Ismail Hakkı Uzunçarşılı; Osmanlı Tarihi, Cilt.2, Türk Tarih Kurumu yayınları: Dünya tarihi, Ankara, 1988, p 359.

(٦٣) فريدون أمجان: مرجع سابق، ص ٢٧٠.

(٦٤) أسقف ودبلوماسي فرنسي، ولد في بلدة لانغدوك جنوب فرسا، كلفه فرنسوا الأول بعدة مهام؛ ففي عام ١٥٢٩م رافق لويز دي سافوي إلى كامبراي، وأبرم الصلح مع شارل الخامس. عُيِّن سفيراً

في البندقية عام= ١٥٣٩، وفي عام ١٥٤٢م استدعاه فرنسوا الأول لمرافقة بولين لا جارد للسفر إلى اسطنبول لمقابلة السلطان سليمان. للمزيد حول "بيليسيه" ونشاطه الدبلوماسي انظر:

Alexandre Tausserat-Radel; Correspondance politique de Guillaume Pellicier: ambassaduer de France à Venise 1540-1542, Inventaire analytique des archives du Ministère des affaires étrangères, F. Alcan, Paris,1899.

(65) Jean Zeller; La diplomatie française vers le milieu du XVIe siècle : d'après la correspondance de Guillaume Pellicier, évêque à Montpellier, ambassadeur de François Ier à Venise (1539-1542), Paris, 1880, p.12.

(66) Lettre de Pellicier, évêque de Montpellier, écrite à Venise le 4 décembre 1541 et adressée à François Ier, dans: Alexandre Tausserat-Radel; Op., Cit., T.2, pp.475-478.

(67) Yann Bouvier; Op., Cit., p.80.

(68) Lettre de Suléyman à François I, on date de fin mai 1543 (fin sàfer 950). dans: Le baron de Testa; Op. Cit., T.1, p.37.; Ismail Hakkı Uzunçarşılı ; Op. Cit., Cild.2, pp.359-360.

(٦٩) أندري كلو: مرجع سابق، ص ٢٢٥– ٢٢٦.

(٧٠) مؤيد حميد الدوري: مرجع سابق، ص ١٥٠– ١٥١.

(٧١) فاطمة علي العواد: مرجع سابق، ص ٢١٣.

(72) Ahmet Şimşirgil; Osmanlı Tarihi, Kayı 4- Ufukların Padişahı: Kanuni Sultan Süleyman , Timaş Yayınları, Istanbul, 201, p179.

(٧٣) مؤيد حميد الدوري: مرجع سابق، ص ١٥٣.

(74) Yann Bouvier; Op., Cit., p.83.

(٧٥) فريدون أمجان: مرجع سابق، ص ٢٧٣.

(76) Ismail Hakkı Uzunçarşılı ; Op. Cit., Cild.2, p.360.

(٧٧) فريدون أمجان : مرجع سابق، ص ٢٧٣.

(٧٨) مؤيد حميد الدوري: مرجع سابق، ص ١٥٣.

(79) Ahmet Şimşirgil; Op. Cit., p179.

(80) Ismail Hakkı Uzunçarşılı ; Op. Cit., Cild.2, p.360.

(81) Edward Shepherd Creasy; History of the Ottoman Turks: From the Beginning of Their Empire to the Present Time, Richard Bentley, London, 1878, p.178.

(82) Ismail Hakkı Uzunçarşılı ; Op. Cit., Cild.2, p.360.

(٨٣) فريدون أمجان: مرجع سابق، ص ٢٧٤.

(٨٤) أندري كلو: مرجع سابق، ص ٢٢٩.

(٨٥) فريدون أمجان: مرجع سابق، ص ٢٧٤– ٢٧٥.

(86) Joseph von Hammer; Büyük Osmanlı Tarihi, Cilt,5, p.259.

(87) Yann Bouvier; Op., Cit., pp.83-84.

(88) B.O.A, Mühimme Defteri No: 890, Hüküm No. 810, Muharram 951 h, Sayfa.443.

نقلاً عن: مؤيد حميد الدوري، مرجع سابق، ص١٥٧.

(٨٩) مؤيد حميد الدوري: مرجع سابق، ص ١٥٨.

(٩٠) أندري كلو: مرجع سابق، ص ٢٣١.

(٩١) بسام العسلي: خير الدين بربروس والجهاد في البحر (١٤٧٠-١٥٤٧م)،ط١، دار الجيل، بيروت،١٩٩١، ص ١٦٦.

(٩٢) للتفاصيل حول معاهدة كريبي انظر:

H. Joffroy; Dissertation sur le traité de paix de Crépy du 18 septembre 1544, soissons, Paris,1881, pp.1-40.

(93) Les collections du Musée des Archives Nationales, AE (Affaires Etranges /III/248, On; https://basedoc.diplomatie.gouv.fr/exl-php/recherche/mae_internet___traites

(٩٤) أندري كلو: مرجع سابق، ص ٢٣٣.

(٩٥) بسام العسلي: خير الدين بربروس والجهاد في البحر، مرجع سابق، ص ١٦٦.

(96) Ismail Hakkı Uzunçarşılı ; Op. Cit., Cild.2, p.361.

(٩٧) فاطمة علي العواد: مرجع سابق، ص ٢٢٠.

(98) Les collections du Musée des Archives Nationales, AE (Affaires Etranges /III/248)

(99) B.O.A, Mühimme Defteri No: 12321, Hüküm No.51.23 Şevval 951H, sayfa N ,22.

نقلاً عن: مؤيد حميد الدوري، مرجع سابق، ص١٦١.؛

(100) B.O.A, Mühimme Defteri No: 12321, Hüküm No. 52, Zilkide 951H, sayfa No:22.

نقلاً عن: فاطمة العواد، مرجع سابق، ص٢٢٧.؛

(١٠١) مؤيد حميد الدوري: مرجع سابق، ص١٦٤

(102) B.O.A, Mühimme Defteri No: 12321, Hüküm No. 227, Zilkide 951H, sayfa No:100.

نقلاً عن: فاطمة العواد، مرجع سابق، ص٢٢٨.؛

(١٠٣) فاطمة علي العواد: مرجع سابق، ص ٢٢٩.

(١٠٤) فريدون أمجان: مرجع سابق، ص ٢٧٩؛ طه زاده عمر فاروق: تاريخ أبو الفاروق (تاريخ عثمانيده سياست ومدنيت اعتباريله حكمت اصلية تحرينه تشبث)، أوجنجي جلد، ط١، در سعادت، استانبول، ١٣٢٨هـ، ص ١٠٤.

(105) Roger Bigelow Merriman; Suleiman the Magnificent 1520-1566, Harvard University Press, U.S.A,1944, p.270.

(١٠٦) فريدون أمجان: مرجع سابق، ص ٢٧٩.

(١٠٧) وكان مما جاء في رسالة شارل الخامس إلى الصدر الأعظم إبراهيم باشا ما يلي: "... إلى الصدر الأعظم، حضرة إبراهيم باشا والي حضرة السلطان سليمان حاكم جميع المسلمين، ورئيس جميع البلاد والممالك، صديقنا العزيز، خالص سلامنا ودعائنا له في كل آن، أصبح معلوماً لدينا من خطاب أخينا فرديناند أنه يريد الصلح والصداقة مع الدولة... وسبب إرسال هذه الرسالة هو تحقيق الصداقة بين الطرفين، كما كانت من قبل في عصر السلطان سليم الأول مدة من الزمن". انظر: B.O.A. TSMA. E.0756/99.

(108) Roger Bigelow Merriman; Op. Cit., p.270.

(١٠٩) طه زاده عمر فاروق: مرجع سابق، أوجنجي جلد، ص ١٠٥.

(110) Yilmaz Oztuna; Kanuni Sultan Süleyman, BKY Ajans, babıali kültür yayıncılığı, Yenibosna, Istanbul, 2006, p.47.

(١١١) طه زاده عمر فاروق: مرجع سابق، أوجنجي جلد، ص ١٠٥.

(١١٢) صدر أسبق كامل باشا: مصدر سابق، جلد ١، ص ٢١٨.

(١١٣) فاطمة العواد: مرجع سابق، ص ٢٣٤.

(١١٤) فريدون أمجان: مرجع سابق، ص ٢٨١.

(115) Ismail Hami Danişmend; Op. Cit., Cilt.2, pp.251-252.

(116) Roger Bigelow Merriman; Op. Cit., p.270.

(117) Yilmaz Oztuna; Op. Cit., p.48.

(118) Samuel Jacob; History of the Ottoman Empire: Including a Survey of the Greek Empire and the Crusades,2.ed, R. Griffin,London, 1854, p.353.

(119) Johann Wilhelm Zinkeisen; Osmanlı İmparatorluğu Tarihi, Cilt.2, Yeditepe Yayınevi, İstanbul ,2011, p.618.

المصـــــادر

أولاً: الوثائق.

- أرشيف رئاسة مجلس الوزراء (إسطنبول).

- B.O.A. TSMA. E.0756/99

ثانياً: المصادر والمراجع.

١- باللغة العربية.

- إدريس الناصر رائسي: العلاقات العثمانية الأوربية في القرن السادس عشر، ط١، دار الهادي للطباعة والنشر، بيروت،٢٠٠٧.
- أكمل الدين إحسان أوغلي: الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، تعريب: صالح سعداوي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، إسطنبول، ١٩٩٩.
- أندري كلو: سليمان القانوني، تعريب: البشير بن سلامة، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١.
- بسام العسلي: خير الدين بربروس والجهاد في البحر (١٤٧٠- ١٥٤٧م)، ط١، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٠.
- بسام العسلي: فن الحرب الإسلامي في العهد العثماني، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤.
- جاك فريمو: فرنسا والإسلام من بنابليون إلى ميتران، ترجمة هاشم صالح، ط١، دار قرطبة للنشر، قبرص، ١٩٩١.
- جلال يحيى: تاريخ العلاقات الدولية في العصور الحديثة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢.
- شكيب أرسلان: تاريخ الدولة العثمانية، تحقيق: حسن السماحي سويدان، ط١، دار ابن كثير، دمشق، ٢٠١١.
- فريدون أمجان: سليمان القانوني سلطان البرين والبحرين حقائق في ضوء المصادر، ترجمة: جمال فاروق وأحمد كمال، ط١، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠١٤.
- ليلى الصباغ: الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر/ العاشر والحادي عشر الهجريين، ج ١، ط ١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٩م.
- محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق: إحسان حقي، ط١، دار النفائس، بيروت، ١٩٨١.

- مؤيد حميد الدوري: العلاقات العثمانية الفرنسية ١٥٢٠-١٥٦٦م، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، ٢٠١٧.
- نعيم زكي فهمي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣.
- نور الدين حاطوم: تاريخ عصر النهضة الأوروبية، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٥.

٢- باللغة العثمانية.

- جون فون هاممر: دولت عثمانية تاريخي، ترجمة: محمد عطا، بيشنجي جلد، سلانيك مطبعه سي، استانبول، ١٣٣٠هـ.
- صدر أسبق كامل باشا: تاريخ سياسي دولة علية عثماني، مطبعة أحمد إحسان، استانبول، ١٩٠٩.
- طه زاده عمر فاروق: تاريخ أبو الفاروق (تاريخ عثمانيده سياست ومدنيت اعتباريله حكمت اصلية تحرينه تشبث)، أوجنجي جلد، ط١، در سعادت، استانبول، ١٣٢٨هـ.

٣- باللغات الإنجليزية والفرنسية والتركية.

- Ahmet Şimşirgil; Osmanlı Tarihi, Kayı 4- Ufukların Padişahı: Kanuni Sultan Süleyman , Timaş Yayınları, Istanbul, 2013.
- Alexandre Tausserat-Radel; Correspondance politique de Guillaume Pellicier: ambassaduer de France à Venise 1540-1542, Inventaire analytique des archives du Ministère des affaires étrangères, F. Alcan, Paris,1899.
- Burke Wilkinson; Francis in All His Glory, New York, 1972.
- E.Charrière; Négociations de la France dans le Levant, ou Correspondances, mémoires et actes diplomatiques des ambassadeurs de France à Constantinople... à Venise, Raguse, Rome, Malte et Jérusalem, en Turquie, Perse, Géorgie, Crimée, Syrie, Égypte, etc., et dans les États de Tunis, d'Alger et de Maroc, T.1, Imprimerie Nationale, 1853.
- Edward Shepherd Creasy; History of the Ottoman Turks: From the Beginning of Their Empire to the Present Time, Richard Bentley, London, 1878.
- Garrett Mattingly; Renaissance Diplomacy, Baltimore, U.S.A, 1964.

- Georg Bernhard Depping; Histoire du Commerce entre le Levant et l'Europe depuis les Croisades jusqu'à la fondation des colonies d'Amérique, T.2, Paris, 1830.
- H. Joffroy; Dissertation sur le traité de paix de Crépy du 18 septembre 1544, soissons, Paris,1881.
- Ismail Hakkı Uzunçarşılı; Osmanlı Tarihi, Cilt.2, Türk Tarih Kurumu yayınları: Dünya tarihi, Ankara, 1988.
- Ismail Hami Danişmend; Izahlı Osmanlı Tarihi Kronolojisi,cilt.2, Türkiye Yayınevi, 1971.
- Jean Zeller; La diplomatie française vers le milieu du XVIe siècle : d'après la correspondance de Guillaume Pellicier, évêque à Montpellier, ambassadeur de François Ier à Venise (1539-1542), Paris, 1880.
- Johann Wilhelm Zinkeisen; Osmanlı İmparatorluğu Tarihi, Cilt.2, Yeditepe Yayınevi, İstanbul ,2011.
- Le Barón de Testa; Recueil des traités de la Porte ottomane avec les puissances étrangères depuis le premier traité conclu, en 1536, entre Suléyman I et François I jusqu'à nos jours,T.1, Amyot, Paris,1864.
- Louis Deshayes de Courmenin; Voyage de Levant fait par le commandement du Roy en l'année 1621, A. Taupinaert, 1645.
- M. Lecote De Saint –Priest , Mémoire sur l’ambassade de France en Turquie et sur le commerce des français dans le levant , Librairie de la société asiatique , Paris , 1877.
- Roger Bigelow Merriman; Suleiman the Magnificent 1520-1566, Harvard University Press, U.S.A,1944.
- Samuel Jacob; History of the Ottoman Empire: Including a Survey of the Greek Empire and the Crusades,2.ed, R. Griffin,London, 1854.
- Wilhelm Heyd; Histoire du commerce du Levant au moyen-âge, T.1, Leipzig, 1886.
- Yilmaz Oztuna; Kanuni Sultan Süleyman, BKY Ajans, babıali kültür yayıncılığı, Yenibosna, Istanbul, 2006.

ثالثاً: الرسائل والأطروحات.

١- باللغة العربية.

- فاطمة علي العواد: العلاقات العثمانية- الفرنسية في عهد السلطان سليمان القانوني (٩٢٦-٩٧٤هـ/١٥٢٠- ١٥٦٦م) دراسة وثائقية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

٢- باللغات الأجنبية.

- Anthony Carmen Piccirillo ; The Franco-Ottoman Alliance of Francis I and the Eclipse of the Christendom Ideal, Senior Honors Thesis in History ,Georgetown University, 2009.

رابعاً: الأبحاث.

١- باللغة العربية.

- رائد سامي الدوري: معاهدة الامتيازات العثمانية الفرنسية لعام ١٥٣٦م "دراسة تاريخية تحليلية"، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة تكريت، ع ٢، مج ١٩، ٢٠١٢.
- فاطمة حسين فاضل المفرجي: العلاقات العثمانية الفرنسية (١٥٦٦م- ١٧٤٠م)، مجلة سر من رأى، كلية التربية، جامعة سامراء، ع ٤١، مج ١١، ٢٠١٥.
- مشتاق مال الله قاسم وحيدر عبد الرضا حسن: العلاقات العثمانية الفرنسية والموقف الروسي منها ١٥٣٥-١٨٥٦م، مجلة آداب البصرة، جامعة البصرة، العراق، ع ٧٥، ٢٠١٥.
- يوسف علي الثقفي: معاهدة الامتيازات العثمانية الفرنسية لعام ٩٤١هـ/ ١٥٣٥م، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، السعودية، ع ٦، مج ٦، ١٩٨٢.

٢- باللغات الأجنبية.

- Yann Bouvier; Antoine Escalin des Aimars (1498-1578) - De la Garde-Adhémar au siège de Nice, le parcours d'un Ambassadeur de François Ier, Recherches Régionales, Nice, Conseil Général des Alpes-Maritimes, n°188, Octobre-décembre 2007.

خامساً: القواميس والمعاجم والموسوعات والشبكة العنكبوتية.

- Les collections du Musée des Archives Nationales, AE (Affaires Etranges /III/248, On; https://basedoc.diplomatie.gouv.fr/exl-php/recherche/mae_internet___traites
- https://www.britannica.com
- The Cambridge Modern History by Lord Acton LLd, vol.3, The Wars Of Religion, New York, The Macmillan Company, 1905.